روح العدالة

مسألة فناء النار و مصير الكافر بعد فنائها

1. قصة وتاريخ المسألة (الجذور التاريخية)

البداية: لم تكن المسألة وليدة العصور المتأخرة، بل بدأت كآثار مروية عن كبار الصحابة الذين فهموا من "سعة رحمة اللّٰه" ومن نصوص القرآن أن النار "سجن" لتطهير النفوس لا "معمل" للتعذيب الأبدي.
الانقطاع والظهور: اختفت المسألة تقريباً في عصور تدوين العقائد الكلامية (التي جزمت بالأبدية)، حتى أعاد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إحياءها كقضية كبرى ترتبط بـ "كمال الصفات الإلهية".

2. أدلة فناء النار (الحجج النقلية)

من القرآن الكريم:

1. الاستثناء في سورة هود:خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ$. قالوا: اللّٰه ختم آية أهل الجنة بـ "عطاءً غير مجذوذ" (أي غير مقطوع)، بينما ختم آية النار بـ "إن

ربك فعال لما يريد"، مما يترك الباب مفتوحاً لإنهاء هذا العذاب بمشيئته.

2. لفظ الأحقاب: { لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا }. والأحقاب في اللغة العربية هي مدد زمنية طويلة لكنها متناهية.

من آثار الصحابة:

ابن مسعود رضي الله عنه:"ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد".

أبو هريرة رضي الله عنه: "سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد".

عمر رضي الله عنه قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل " عالج " لكان لهم يوم يخرجون فيه".

وأبو سعيد الخدري قال في آية: (إلا ما شاء ربك): "أتت على كل آية في القرآن، أي آية وعيد".

وابن عباس - في رواية عنه - قال في الآية: (إلا ما شاء ربك): "استثنى الله قال: أمر الله النار أن تأكلهم".

الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانا، وأسرعهما خرابًا".

وأبو مجلز قال عن النار: "جزاؤه، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه".

وإسحاق بن راهويه - وقد سئل عن آية هود - قال: "أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن".

3. ما قاله الأئمة في كتبهم (التوثيق الأكاديمي)
ابن تيمية (في كتابه: الرد على من قال بفناء الجنة والنار): فرّق بذكاء بين الجنة (التي هي من مقتضى "الرحمة" وهي صفة ذاتية للّه فلا تنتهي) وبين النار (التي هي من مقتضى "الغضب" وهو صفة فعلية تتعلق بمشيئته، وما كان بالمشيئة جاز انتهاؤه).
ابن القيم (في كتابه: حادي الأرواح، الفصل 67): سرد (25) دليلاً على فناء النار، وناقش أدلة القائلين بالأبدية واحداً تلو الآخر، مبيناً أن حكمة اللّه في الخلق هي "الرحمة والمصلحة"، والتعذيب الأبدي الذي لا مصلحة بعده (لأن الكافر لن يعود للدنيا) لا يتفق مع كمال الحكمة.
يوسف القرضاوي: في آرائه المعاصرة، يرى أن هذا القول هو الأليق بجمال الإسلام وسعة رحمة اللّه، ويجعل من النار "مستشفى" لتطهير الأرواح الخبيثة حتى تطهر.

4. مصير الكافر بعد فناء النار (التركيز الأساسي)

إذا فنيت النار، أين يذهب الكفار؟

هناك ثلاثة اتجاهات ذكرها ابن القيم وابن تيمية:
1. القول الأول (الصيرورة إلى العدم): أن الكافر بعد أن ينال جزاءه العادل الذي يطهر خبثه، "يعدمه" اللّٰه، فلا يبقى له وجود، وبذلك ينتهي الشقاء من الكون.
2. القول الثاني (القلب إلى طبيعة أخرى): أن طبيعة الكفار تتغير بحيث تلائم النار أو تتحول النار إلى برد وسلام عليهم (وهو قول ضعيف عندهما).
3. القول الثالث والأقرب (الخروج إلى الرحمة): وهو القول الذي مال إليه ابن القيم بقوة؛ ومفاده أن الكفار بعد أن "يهذبوا" بالعذاب ويحترق الخبث الذي في نفوسهم، يصبحون قابيلن للرحمة. وبما أن "الجنة" هي دار الطيبين، فإن اللّٰه قد يخلق لهم داراً أخرى أو يدخلهم في أدنى مراتب الرحمة، لأن اللّٰه قال: "ورحمتي وسعت كل شيء"، والكافر "شيء".

الرحمة" لا تعني بالضرورة "جنة الفردوس" التي وعد بها الأنبياء، بل هي دار تلائم حالهم بعد التطهير

5. القول الأقرب (الخلاصة والترجيح)
بناءً على "روح العدالة" التي تدرسها، القول الأقرب عند أصحاب هذا المذهب هو:
"أن النار سجن مؤقت (وإن طال لملايين السنين)، تنتهي بموت (الشر) في نفوس الكفار، فإذا فني الشر، فنيت النار، وصار الخلق كلهم إلى رحمة خالقهم."

حكم القائل أو المائل لهذا القول:
المائل إليه: يُعتبر باحثاً عن كمال الله وجماله، ولا يُذم.
الجازم به: قد يُخطئه الجمهور لمخالفة ظاهر الإجماع، لكنه لا يُكفر أبداً؛ لأن له أدلة من القرآن والسنة وآثار الصحابة.

"إن العدالة الجنائية الإلهية أسمى من انتقام البشر؛ فبينما يرى القانون الوضعي العقوبة وسيلة للردع، ترى مدرسة ابن تيمية أن العقوبة الإلهية هي وسيلة للتطهير، فإذا طَهُر الخلائق، عمت الرحمة."

1. هل دخول الكافر "الجنة" بدعة؟
نعم، من وجهة نظر جمهور العلماء ، القول بدخول الكافر (الذي مات على كفره) إلى الجنة يعتبر مخالفاً للنصوص القطعية مثل قوله تعالى: { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ } (المائدة: 72). لذا، فإن الفقهاء يعتبرون القول بدخولهم الجنة "مصادمة

2. هل حالة "لا عذاب ولا نعيم" هي الأقرب؟
"الإنسان شيء يتحرك"، والجمود في حالة لا هي عذاب ولا هي نعيم للأبد قد لا يتفق مع طبيعة الخلق. في مدرسة فناء النار، هناك "مخارج" لهذا الإشكال:

رأي "العدم": بعضهم قال إن الكافر يتلاشى (يصير تراباً)، وهذا يحل إشكالية "أين يذهب؟".
رأي "الدار الأخرى": أن الله يخلق لهم داراً ليست هي الجنة التي وُعد بها المؤمنون، وليست هي النار التي عُذبوا فيها، بل هي دار "رحمة" تناسب حالهم بعد التطهير.

3. ما هو القول الأقرب لمدرسة (ابن القيم) وما هو

الدليل؟
عندما نقول "القول الأقرب" فنحن نقصد الأقرب لمذهب القائلين بالفناء (أي ما يراه ابن القيم هو الأصح من وجهة نظره)، وليس بالضرورة قول الجمهور.

القول الأقرب عند ابن القيم:

القول الأقرب في مدرسة الفناء ليس هو "العدم" (التحول لتراب) ولا "الجمود" (لا نعيم ولا عذاب)، بل هو "الصيرورة إلى مقتضى الرحمة الإلهية"، لأن اللّه تعالى لا يخلق خلقاً ليتألموا للأبد دون غاية تطهيرية، وهذا هو قمة في فهم الحكمة الإلهية.

الدليل الذي يستندون إليه:
1. عموم الرحمة: قوله تعالى:{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } (الأعراف: 156). يقول ابن القيم: الكافر "شيء"، فإذا انتهى زمن الغضب (العذاب)، فلا بد أن تدركه الرحمة، وإلا لكانت الرحمة لم تسع كل شيء.
2. سبق الرحمة للغضب: الحديث القدسي: "إن رحمتي سبقت غضبي". قالوا: الغضب له نهاية (وهو النار)، أما الرحمة فلا نهاية لها، فإذا انتهى الغضب، بقي مقتضى

الرحمة.
3.انتهاء "الخبث": مدرسة ابن القيم ترى أن الكفر "خبث عارض" على الفطرة، والنار "مُطهر". فإذا احترق الخبث وبقيت الفطرة، فإن الله لا يترك هذه الفطرة في العذاب للأبد.

"يرى أصحاب القول بفناء النار (كابن القيم) أن مصير الكفار يؤول إلى الرحمة العامة، استناداً إلى أن الله أرحم بعباده من الأم بولدها، وأن مقتضى حكمته تقتضي انتهاء الشقاء بانتهاء سببه (وهو الخبث والكفر). ومع قول الجمهور بحرمة الجنة على الكافر، إلا أن هؤلاء الأئمة يرون أن قدرة الله ورحمته لا يحدها حد، وأن الله فعال لما يريد."

1. هل يخلف الله وعيده؟
القاعدة المشهورة عند العرب وفي عقيدة الكثير من العلماء (ومنهم من مال إليه ابن تيمية وابن القيم) هي: "الله تعالى لا يخلف وعده (النعيم)، ولكنه قد يتجاوز عن وعيده (العذاب)."

الوعد: هو الإخبار بخير وإعطاء المكافأة (مثل الجنة

للمؤمن). وهذا لا يخلفه اللّه أبداً كمالاً لصدقه وكرمه.
الدليل: إِنَّ اللّهَ لَا يُخْلِيفُ الْمِيعَادَ$ (الرعد: 31).
الوعيد:هو الإخبار بشر أو عقوبة (مثل النار للعاصي).
وهنا يقول العلماء: إن اللّه قد "يخلف" وعيده، أي يعفو ويتجاوز، وهذا لا يُعد نقصاً بل يُعد **كرماً وجوداً وإحساناً.

2. الفرق بين الوعد والوعيد

في اللغة والشرع، هناك فرق جوهري يوضح لماذا "خُلف الوعيد" يُعتبر مدحاً:
خُلف الوعد: يُسمى "كذباً" أو "بُخلاً"، واللّه منزه عن ذلك.
خُلف الوعيد: يُسمى "عفواً" و"كرماً" و"صفحاً"، واللّه هو أهل العفو والمغفرة.

قال الشاعر العربي قديماً في هذا المعنى:
وإني وإن أوعدتُه أو وعدتُه .. لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي.

3. هل الوعيد هو العذاب أو العقاب؟

نعم، الوعيد في الاصطلاح الشرعي هو: "الإخبار بوقوع العقاب على فعل محرم أو ترك واجب".

العقاب: هو النتيجة الفعلية (ما يحدث في الآخرة).
الوعيد: هو التهديد المسبق (ما ورد في القرآن والسنة من تخويف).

الدليل على أن الله يتجاوز عن الوعيد:
قوله تعالى: وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ$ (النساء: 48). فالله توعد العاصي بالنار، ولكنه أخبر أنه قد يغفر له (أي يخلف الوعيد بالعفو عنه) .

كلام ابن القيم عن فناء النار

العقوبة الدائمة إما أن تكون مصلحة للمعاقب، أو للمعاقب، أو لهما، أو لغيرهما، أو لا مصلحة فيها البتة، والأقسام كلها باطلة:
أما المعاقب؛ فإنه إنما تكون العقوبة مصلحة في حقه، إذا كان محتاجا إليها؛ لشفاء غيظه، وإطفاء نار غضبه التي يتأذى ببقائها. والله تعالى منزه عن ذلك كله، فلم يبلغ العباد ضره فيضروه، ولا نفعه فينفعوه ...
وأما أنه لا مصلحة للمعاقب، ولا لغيره في ذلك؛ فظاهر؛ فتعين القسم الأخير، وهو أنه لا مصلحة فيها، وما كان كذلك؛ فهو عبث، يتعالى الله عنه ...

وهذا بخلاف ما إذا قيل: وضعت العقوبة لمصلحة، وتقدرت بقدرها، فإذا حصلت الحكمة، والغاية المطلوبة منها، وترتب المصلحة التي قصدت بها؛ عاد الأمر إلى الرحمة، والجود. اهـ.

وتناول بيان سعة رحمة الله، وأنها شاملة، وأنها تسبق غضبه، وتغلبه، ثم قال: وكل هذا ينفي أن يخلق خلقا لمجرد عذابه السرمدي، الذي لا انتهاء له، ولا انقضاء، لا لحكمة مطلوبة، إلا لمجرد التعذيب، والألم الزائد على الحد، فما قدر الله حق قدره من نسب إليه ذلك، بخلاف ما إذا خلقهم ليرحمهم، ويحسن إليهم، وينعم عليهم، فاكتسبوا ما أغضبه وأسخطه، فأصابهم من عذابه وعقوبته بحسب ذلك العارض الذي اكتسبوا، ثم اضمحل سبب العقوبة، وزال، وعاد مقتضى الرحمة؛ فهذا هو الذي يليق برحمة أرحم الراحمين، وحكمة أحكم الحاكمين ...

وهذا يدل على أنها خلقت لمصلحة من دخلها؛ لتذيب فضلاته، وأوساخه، وأدرانه، وتطهره من خبثه، ونجاسته، كالكير الذي يخرج خبث الجواهر المنتفع بها، ولمصلحة من لم يدخلها؛ ليردعه ذكرها، والخبر عنها عن ظلمه، وغيه؛ فليست الداران عند الله سواء في الأسباب، والغايات، والحكم، والمصالح.

يوضح ذلك أن الله تعالى لا يعذب أحدا إلا لحكمة، ولا يضع عذابه إلا في المحل الذي يليق به ... وكيف يخلو أعظم العقوبات عن حكمة، ومصلحة، ورحمة، إن مصدرها عن تقدير أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.
والجنة طيبة، لا يدخلها إلا طيب؛ ولهذا يدخل النار من أهل التوحيد من فيه خبث، وشر؛ حتى يتطهر فيها، ويطيب ... ومعلوم أن النفوس الشريرة الظالمة المظلمة الأثيمة، لا تصلح لتلك الدار التي هي دار الطيبين، ولو ردت إلى الدنيا قبل العذاب؛ لعادت لما نهيت عنه، فلا تصلح لدار السلام التي سلمت من كل عيب، وآفة؛ فاقتضت الحكمة تعذيب هذه النفوس عذابا يطهر نفوسهم من ذلك الشر، والخبث، ويكون مصلحة لهم، ورحمة بهم ذلك العذاب، وهذا معقول في الحكمة، أما خلق النفوس لمجرد العذاب السرمدي لا لحكمة، ولا لمصلحة؛ فتأباه حكمة أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين. اهـ.
وقال بعد ذلك: ولنرجع إلى المقصود، وهو أن الذين قالوا: عذاب الكفار مصلحة لهم، ورحمة لهم، حاموا حول هذا المعنى، ولم يقتحموا لجته، وإلا فأي مصلحة لهم في عذاب لا ينقطع، وهو دائم بدوام الرب تعالى، فتأمل هذا الوجه حق التأمل، وأعطه حقه من النظر،

واجمع بين ذلك وبين معاني أسمائه وصفاته، وما دل عليه كلام اللّٰه، وكلام رسوله، وما قاله الصحابة، ومن بعدهم، ولا تبادر إلى القول بلا علم، ولا إلى الإنكار، فإن أسفر لك صبح الصواب، وإلا فرد الحكم إلى ما رده اللّٰه إليه بقوله: {إن ربك فعال لما يريد}، وتمسك بقول علي بن أبي طالب -رضي اللّٰه عنه- وقد ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ووصف حالهم، ثم قال: "ويفعل اللّٰه بعد ذلك ما يشاء". اهـ.
وفي هذا الكلام الأخير نوع توقف، أو بيان للإشكال الكبير في مسألة فناء النار!

هل النار تفنى مباشر او تخفف العذاب تدريجياً و بعدها تفنى ؟

ابن القيم لا يقول إن العذاب ينتهي "فجأة"، بل يطرح رؤية فلسفية وشرعية تقوم على "انتهاء مادة الشر" بمرور أحقاب لا يعلم عدتها إلا اللّٰه.

1. من كتاب "حادي الأرواح" (الفصل المخصص لفناء النار):

في هذا الكتاب، يستعرض ابن القيم الأقوال في المسألة، ويميل إلى القول السابع وهو (أنها تفنى). يقول ما ملخصه:

"إن اللّٰه سبحانه أخبر عن الجنة أن عطاءها غير مجذوذ (أي غير مقطوع)، وأخبر عن أهل النار أنه يعذبهم ما شاء، ثم ذكر الأحقاب.. والحكمة الإلهية تقتضي أن العذاب لا يكون غاية في ذاته، بل هو وسيلة للتطهير، فإذا زالت مادة الخبث وصفا الجوهر، اقتضت الرحمة الإلهية شمولهم."

2. كيف شرح "التخفيف التدريجي"؟

ابن القيم يرى أن النار طبقات (دركات)، وأن رحمة اللّٰه تنزل تدريجياً:

المرحلة الأولى: خروج عصاة الموحدين بالشفاعة (وهذا مجمع عليه).

المرحلة الثانية:بقاء الكفار "أحقاباً" (والحقب قيل إنه 80 سنة، وكل يوم بألف سنة).

المرحلة الثالثة: يرى ابن القيم (نقلاً عن بعض الآثار) أن النار يخرج منها أناس لم يعملوا خيراً قط، ثم يأتي وقت يغلق فيه باب العذاب لأن "رحمته سبقت غضبه".

3. حجته في "انقطاع العذاب" (من كتاب شفاء العليل):
يقول ابن القيم كلاماً في غاية العمق المحاسبي والمنطقي:
تناهي الذنب: الذنب الذي فعله الكافر في الدنيا "محدود" بزمن (عاش 60 سنة مثلاً)، فمن مقتضى كمال العدل والرحمة أن لا يكون العقاب "غير محدود" أبد الآباد، بل ينتهي بانتهاء الحكمة منه.
صفات اللّٰه: يقول إن "الرحيم" من أسمائه، و"الجواد" من أسمائه، أما "المعذب" فليس من أسمائه الحسنى، بل هو فعل من أفعاله يزول بزوال سببه.

4. النص الشهير الذي يُستدل به عليه:
يقول في "شفاء العليل":
"والنار مآلها إلى الفناء، وهو قول طائفة من السلف والخلف.. ويستحيل أن يكون العذاب أبدياً لا نهاية له، لأن الرب تعالى أخبر أن رحمته وسعت كل شيء، والكافر شيء، فإذا لم تشمله الرحمة في وقت ما، لم تكن قد وسعت كل شيء."

ابن القيم يرى أن النار (سجن للتطهير) وليست داراً للبقاء الأبدي مثل الجنة. يرى أن الكفار يُعذبون مدداً

طويلة جداً (أحقاباً)، وفي كل حقبة يخف الضغط أو تتغير طبيعة العذاب، حتى يأتي وقت يأذن الله فيه بانطفاء هذه النار وشمول مَن فيها برحمته، مستدلاً بقوله تعالى: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}.

أن الله تعالى أخبر في ثلاث آيات عن النار بما يدل على عدم أبديتها:

أ ـ آية سورة النبأ: (لابثين فيها أحقابًا) (الآية: 23).

فتقييد لبثهم فيها بالأحقاب يدل على مدة مقدرة يحصرها العدد، لأن ما لا نهاية له لا يقال فيه: هو باق أحقابًا، وقد فهم ذلك من الآية الصحابة - وهم أفهم الأمة لمعاني القرآن - كما سنذكر بعد.

ب ـ آية سورة الأنعام: (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) (الآية: 128).

جـ ـ آية سورة هود: (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) (الآية: 107).. وقال بعدها في الجنة وأهلها: (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) (الآية: 108). ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها، لكان حكم الاستثناء ين في الموضعين واحدًا. كيف؟ وفي الآيتين من السياق ما

يفرق بين الاستثناء ين فإنه قال تعالى في أهل النار: (إن ربك فعال لما يريد) فعلمنا أنه تعالى يريد أن يفعل فعلاً لم يخبرنا به، وقال في أهل الجنة: (عطاء غير مجذوذ) فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبدًا - وسنذكر ما قاله الصحابة في الاستثناء

دل العقل والنقل والفطرة على أن الرب تعالى حكيم رحيم:

والحكمة والرحمة تأبيان بقاء هذه النفوس في العذاب أبد الآباد، وقد دلت النصوص والاعتبار على أن ما شرعه الله وقدره من العذاب والعقوبات في الدنيا، إنما هو لتهذيب النفوس وتصفيتها من الشر الذي فيها،

ولحصول مصلحة الزجر والاتعاظ، وقطع النفوس عن المعاودة - وغير ذلك من الحكم - وفي القرآن والسنة ما يدلنا على أن جنس الآلام إنما هو لمصلحة الإنسان (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ) (التوبة: 120). الخ، (وليمحص الله الذين آمنوا) (آل عمران: 141).إلخ

ورب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته ورحمته موجودة في الدارين، بل رحمته في الآخرة أعظم، فقد ورد في الصحيح: أن رحمته في الدنيا جزء من مائة جزء من

رحمته في الآخرة، فإذا كان العذاب في هذه الدار رحمة بأهله ولطفا بهم ومصلحة لهم، فكيف في الدار التي تظهر فيها مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض.

وليس لله غرض في العذاب كما قال تعالى: (ما يفعل بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) (النساء: 147). كما أنه لا يفعله سدي، وإذن فلا بد من حكمة ومصلحة تعود على عباده، وهي إما مصلحة أحبائه وأوليائه بتمام نعيمهم وبهجتهم بما يفعله في أعدائه وأعدائهم، وإما مصلحة الأشقياء ومداواتهم، أو لهذا ولهذا. وعليه، فالتعذيب مقصود لغيره، قصد الوسائل لا قصد الغايات، والمقصود من الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها.

ونعيم أهل الجنة ليس متوقفًا في أصله ولا كماله على استمرار عذاب أهل النار ودوامه، ولو كان أهل الجنة أقسى خلق الله لرقوا لحال أعدائهم بعد طول العذاب.

ومصلحة الأشقياء ليست في الدوام واستمرار العذاب، وإن كان في أصل التعذيب مصلحة لهم.

أخبر الله تعالى أن رحمته وسعت كل شئ:

وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه كتب على نفسه الرحمة، فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب إلى غير غاية لم تسعهم رحمته، وهذا ظاهر

جدًا، والثابت أن رحمته لا بد أن تنتهي حيث ينتهي العلم كما قالت الملائكة: (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمًا). (غافر: 7).
وقد تسمى الله بالغفور الرحيم ولم يتسم بالمعذب ولا بالمعاقب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم) (الحجر: 49، 50). وغيرها من الآيات، فإنه يتمدح بالعفو والمغفرة والرحمة والحلم... إلخ ويتسمى بها، ولم يتمدح بأنه المعاقب ولا الغضبان ولا المنتقم إلا في الحديث الذي فيه تعديد الأسماء الحسنى ولم يثبت. يوضح هذا أن الله لم يخلق الإنسان عبثًا ولم يخلقه ليعذبه:
وإنما خلقه ليرحمه ولكن اكتسب موجب العذاب بعد خلقه له، فتعذيبه ليس هو الغاية، وإنما تعذيبه لحكمة ورحمة، والحكمة والرحمة تأبيان أن يتصل عذابه سرمدًا إلى غير نهاية، أما الرحمة فظاهر، وأما الحكمة فلأنه إنما عذب على أمر طرأ على الفطرة وغيرها، ولم يخلق عليه من أصل الخلقة، لأن الله خلق عباده حنفاء، ولم يخلق له؛ لأنه لم يخلق للإشراك ولا للعذاب. بل خلق للعبادة والرحمة ولكن طرأ عليه موجب العذاب فاستحق العذاب، وذلك الموجب - وهو الكفر - لا دوام

له فكيف يكون موجبه دائمًا؟

الآيات التي دلت على خلود الكفار وتأبيدهم في النار، وقد قال: إن ذكر الخلود والتأبيد لا يقتضي عدم النهاية، والخلود هو المكث الطويل كقولهم: قيد مخلد والتأبيد في كل شئ بحسبه، فقد يكون لمدة الحياة، ولمدة الدنيا. وقد ورد النص بالخلود على بعض الكبائر من الموحدين وقيد في بعضها بالتأبيد، كما في قاتل المؤمن عمدًا: (فجزاؤه جهنم خالدًا فيها) (النساء: 93). وكما في قاتل نفسه: "فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا".
الآيات التي دلت على عدم خروجهم منها: (وما هم بخارجين من النار) (البقرة 167). (وما هم منها بمخرجين) (الحجر: 48)، (لا يقضى عليهم فيموتوا) (فاطر: 36).إلى آخر تلك الآيات قال: فطائفة قالت: إن إطلاقها مقيد بآيات التقييد بالاستثناء بالمشيئة، فيكون من باب تخصيص العموم وكأن هذا قول من قال من السلف في آية هود: أتت على كل وعيد في القرآن.
والذي صححه ابن القيم أن هذه الآيات على عمومها وإطلاقها، فهم باقون فيها لا يخرجون منها ما دامت

باقية، ولكن ليس فيها ما يدل على أن نفس النار دائمة بدوام الله لا انتهاء لها، وفرق بين أن يكون عذاب أهلها دائمًا بدوامها، وبين أن تكون هي أبدية لا انقطاع لها، فلا تستحيل ولا تضمحل.

الإجماع، قال ابن القيم: وإنما يظن الإجماع في المسألة من لم يعرف النزاع، وقد عرف النزاع فيها قديمًا وحديثًا، كيف وقد نقل عن الصحابة والتابعين التصريح بخلاف ما يدعون؟

ثالثًا: بعد هذا كله مال ابن القيم إلى التفويض في المسألة إلى مشيئة الله فلا جزم بفناء النار، كما لا جزم بدوامها. قال في شفاء العليل: وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين على؛ فإنه ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ووصف ذلك أحسن صفة ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء، وعلى مذهب ابن عباس حيث يقول: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا. ذكره في تفسير قوله تعالى: (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله)..

وعلى مذهب أبي سعيد الخدري حيث يقول: انتهى القرآن كله إلى هذه الآية: (إن ربك فعال لما يريد)، وعلى مذهب قتادة حيث يقول: (إلا ما شاء ربك): الله

أعلم اثنياه: علام وقعت؟، وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول: أخبرنا اللّٰه بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: (عطاء غير مجذوذ) ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.
والقول بأن النار وعذابها دائمان بدوام اللّٰه خبر عن اللّٰه بما يفعله، فإن لم يكن مطابقًا لخبره عن نفسه بذلك كان قولاً عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك، واللّٰه أعلم.

و مصير الكافر في أرض اللّٰه:

حياة الكافر بعد تطهيره من كفره (دخول الإسلام):
يقول ابن القيم أن الكافر إذا أسلم وتطهر من شركه، يذوق حلاوة تسمى "جنة الدنيا".
• المعنى: يرى أن حياته السابقة كانت "ضيقاً وضنكاً" حتى لو كان غنياً، وبعد الإسلام يرى أرض اللّٰه بنور جديد.
• الدليل: قوله تعالى: أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ سورة الأنعام (آية 122):
كما كتبت أنت: ﴿...كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾.
. ابن القيم يقول أن هذه الآية تشرح حال من "تطهر" من كفر الجهل بنور التوحيد، فتتغير رؤيته لكل ذرة في

أرض اللّٰه.

2. متى يرى الكافر ربه وهو في أرض اللّٰه؟

من المهم التوضيح أن "رؤية اللّٰه بالعين" في الدنيا (أرض اللّٰه) ممتنعة على الجميع (مؤمن وكافر). لكن ابن القيم يتحدث عن نوعين من الرؤية للكافر:

• رؤية البصيرة (رؤية الآيات): يرى الكافر "اللّٰه" من خلال أفعاله في الكون (أرض اللّٰه) عندما تضيق به السبل، فيعرف أن هناك إلهاً واحداً.

"إن رؤية الكافر لعظمة اللّٰه في الدنيا هي (حجة عليه)، بينما رؤيته لآثار رحمته بعد فناء النار هي (تفضل من اللّٰه). وبذلك تكتمل دائرة العدالة: عذاب بـ (العدل) ثم فناء بـ (الفضل)."

• الدليل: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
• الدِّينَ
• سورة العنكبوت (آية 65):

﴿...فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

. هنا يرى الكافر عظمة اللّٰه في نجاته، فيتطهر قلبه من الشرك لحظتها.

3. كيف تكون حياة الكافر بعد رؤية (معرفة) اللّٰه؟

إذا اهتدى الكافر ورأى حق اللّٰه في أرضه، تتحول حياته

من "الوحشة" إلى "الأنس".

• يقول ابن القيم: "في القلب شعث (تشتت) لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به"، وهذا ينطبق على الكافر الذي يبصر الحق؛ فتنقلب أرض الله في عينه من سجن إلى بستان للعبادة.

إليك 3 نقاط قد يطرحها المنتقدون :

1. "التأبيد بكلمة (أبداً)"

قد يقول لك البعض: هناك آيات ذكرت الخلود مع كلمة (أبداً) مثل قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا { إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } (النساء: 169).

كما ذكر ابن القيم في بحثك، كلمة "أبداً" في اللغة العربية قد تأتي بمعنى "المدة الطويلة جداً" أو "ما دامت الدار قائمة". والدليل أن الله قال عن المنافقين والظلمة أَبَدًا، ثم استثنى بالمشيئة في آيات أخرى. فالمشيئة (إلا ما شاء ربك) حاكمة على "الأبد"، لأن أبد المخلوق ينتهي بمشيئة الخالق، أما أبد الخالق فلا نهاية له.

2. "الفرق بين الموحد والكافر"

قد يقول أحدهم: "خروج الناس من النار ورد في الأحاديث لـ (عصاة الموحدين) فقط، فكيف نعممه على الكفار؟"

هنا تظهر عبقرية ابن تيمية؛ هو يقول إن خروج الموحدين يكون "بالشفاعة"، أما فناء النار للكفار فيكون "بالمشيئة والرحمة العامة". أي أن الموحد يخرج بفضل "إيمانه"، أما الكافر فينتهي عذابه بـ "انتهاء النار نفسها" وفنائها بفضل "رحمة اللّٰه التي سبقت غضبه". النار هي التي تفنى، فإذا فني السجن، خرج المسجون.

3. "العدالة والمساواة"

قد يسأل سائل: "أليس من الظلم أن يتساوى المؤمن الذي تعب وصلى، مع الكافر الذي طغى، بأن يرحم اللّٰه الاثنين في النهاية؟"

العدل الإلهي محفوظ؛ فالمؤمن في الجنة في درجات لا يبلغها غيره، والكافر عُذب "أحقاباً" (ملايين السنين) كجزاء عادل. المساواة في "الوجود في رحمة اللّٰه" لا تعني المساواة في "الدرجة والنعيم". تماماً مثلما يخرج السجين بعد 20 سنة؛ هو لم يتساوِ مع من عاش حراً طوال حياته، لكنه في النهاية نال حريته.

4. "الإجماع"

"الأمة أجمعت على أبدية النار، ومن خالف الإجماع فقد شذ".
"الإجماع في هذه المسأروح العدالة

مسألة فناء النار و مصير الكافر بعد فنائها

إليك صياغة كاملة للموضوع، مع التركيز المكثف على "مصير الكافر"

1. قصة وتاريخ المسألة (الجذور التاريخية)
البداية: لم تكن المسألة وليدة العصور المتأخرة، بل بدأت كآثار مروية عن كبار الصحابة الذين فهموا من "سعة رحمة الله" ومن نصوص القرآن أن النار "سجن" لتطهير النفوس لا "معمل" للتعذيب الأبدي.
الانقطاع والظهور: اختفت المسألة تقريباً في عصور تدوين العقائد الكلامية (التي جزمت بالأبدية)، حتى أعاد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إحياءها كقضية كبرى ترتبط بـ "كمال الصفات الإلهية".

2. أدلة فناء النار (الحجج النقلية)
من القرآن الكريم:

1. الاستثناء في سورة هود:خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ$. قالوا: الله ختم آية أهل الجنة بـ "عطاءً غير مجذوذ" (أي غير مقطوع)، بينما ختم آية النار بـ "إن ربك فعال لما يريد"، مما يترك الباب مفتوحاً لإنهاء هذا العذاب بمشيئته.

2. لفظ الأحقاب: { لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا }. والأحقاب في اللغة العربية هي مدد زمنية طويلة لكنها متناهية.

من آثار الصحابة:

ابن مسعود رضي الله عنه:"ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد".

أبو هريرة رضي الله عنه: "سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد".

عمر رضي الله عنه قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل " عالج " لكان لهم يوم يخرجون فيه".

وأبو سعيد الخدري قال في آية: (إلا ما شاء ربك): "أتت على كل آية في القرآن، أي آية وعيد".

وابن عباس - في رواية عنه - قال في الآية: (إلا ما شاء ربك): "استثنى الله قال: أمر الله النار أن تأكلهم".

الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانا، وأسرعهما خرابًا".

وأبو مجلز قال عن النار: "جزاؤه، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه".
وإسحاق بن راهويه - وقد سئل عن آية هود - قال: "أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن".

3. ما قاله الأئمة في كتبهم (التوثيق الأكاديمي)
ابن تيمية (في كتابه: الرد على من قال بفناء الجنة والنار): فرّق بذكاء بين الجنة (التي هي من مقتضى "الرحمة" وهي صفة ذاتية لله فلا تنتهي) وبين النار (التي هي من مقتضى "الغضب" وهو صفة فعلية تتعلق بمشيئته، وما كان بالمشيئة جاز انتهاؤه).
ابن القيم (في كتابه: حادي الأرواح، الفصل 67): سرد (25) دليلاً على فناء النار، وناقش أدلة القائلين بالأبدية واحداً تلو الآخر، مبيناً أن حكمة الله في الخلق هي "الرحمة والمصلحة"، والتعذيب الأبدي الذي لا مصلحة بعده (لأن الكافر لن يعود للدنيا) لا يتفق مع كمال الحكمة.
يوسف القرضاوي: في آرائه المعاصرة، يرى أن هذا القول هو الأليق بجمال الإسلام وسعة رحمة الله، ويجعل من النار "مستشفى" لتطهير الأرواح الخبيثة حتى تطهر.

4. مصير الكافر بعد فناء النار (التركيز الأساسي)
إذا فنيت النار، أين يذهب الكفار؟

هناك ثلاثة اتجاهات ذكرها ابن القيم وابن تيمية:
1. القول الأول (الصيرورة إلى العدم): أن الكافر بعد أن ينال جزاءه العادل الذي يطهر خبثه، "يعدمه" اللهُ، فلا يبقى له وجود، وبذلك ينتهي الشقاء من الكون.
2. القول الثاني (القلب إلى طبيعة أخرى): أن طبيعة الكفار تتغير بحيث تلائم النار أو تتحول النار إلى برد وسلام عليهم (وهو قول ضعيف عندهما).
3. القول الثالث والأقرب (الخروج إلى الرحمة): وهو القول الذي مال إليه ابن القيم بقوة؛ ومفاده أن الكفار بعد أن "يهذبوا" بالعذاب ويحترق الخبث الذي في نفوسهم، يصبحون قابيلن للرحمة. وبما أن "الجنة" هي دار الطيبين، فإن الله قد يخلق لهم داراً أخرى أو يدخلهم في أدنى مراتب الرحمة، لأن الله قال:
"ورحمتي وسعت كل شيء"، والكافر "شيء".

الرحمة" لا تعني بالضرورة "جنة الفردوس" التي وعد بها الأنبياء، بل هي دار تلائم حالهم بعد التطهير

5. القول الأقرب (الخلاصة والترجيح)
بناءً على "روح العدالة" التي تدرسها، القول الأقرب عند أصحاب هذا المذهب هو:
"أن النار سجن مؤقت (وإن طال لملايين السنين)، تنتهي بموت (الشر) في نفوس الكفار، فإذا فني الشر، فنيت النار، وصار الخلق كلهم إلى رحمة خالقهم."

حكم القائل أو المائل لهذا القول:
المائل إليه: يُعتبر باحثاً عن كمال الله وجماله، ولا يُذم.
الجازم به: قد يُخطئه الجمهور لمخالفة ظاهر الإجماع، لكنه لا يُكفر أبداً؛ لأن له أدلة من القرآن والسنة وآثار الصحابة.

"إن العدالة الجنائية الإلهية أسمى من انتقام البشر؛ فبينما يرى القانون الوضعي العقوبة وسيلة للردع، ترى مدرسة ابن تيمية أن العقوبة الإلهية هي وسيلة للتطهير،

فإذا طَهُر الخلائق، عمت الرحمة."

1. هل دخول الكافر "الجنة" بدعة؟
نعم، من وجهة نظر جمهور العلماء ، القول بدخول الكافر (الذي مات على كفره) إلى الجنة يعتبر مخالفاً للنصوص القطعية مثل قوله تعالى: { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ } (المائدة: 72). لذا، فإن الفقهاء يعتبرون القول بدخولهم الجنة "مصادمة

2. هل حالة "لا عذاب ولا نعيم" هي الأقرب؟
"الإنسان شيء يتحرك"، والجمود في حالة لا هي عذاب ولا هي نعيم للأبد قد لا يتفق مع طبيعة الخلق. في مدرسة فناء النار، هناك "مخارج" لهذا الإشكال:

رأي "العدم": بعضهم قال إن الكافر يتلاشى (يصير تراباً)، وهذا يحل إشكالية "أين يذهب؟".
رأي "الدار الأخرى": أن اللّٰه يخلق لهم داراً ليست هي الجنة التي وُعد بها المؤمنون، وليست هي النار التي

عُذبوا فيها، بل هي دار "رحمة" تناسب حالهم بعد التطهير.

3. ما هو القول الأقرب لمدرسة (ابن القيم) وما هو الدليل؟
عندما نقول "القول الأقرب" فنحن نقصد الأقرب لمذهب القائلين بالفناء (أي ما يراه ابن القيم هو الأصح من وجهة نظره)، وليس بالضرورة قول الجمهور.

القول الأقرب عند ابن القيم:

القول الأقرب في مدرسة الفناء ليس هو "العدم" (التحول لتراب) ولا "الجمود" (لا نعيم ولا عذاب)، بل هو "الصيرورة إلى مقتضى الرحمة الإلهية"، لأن اللّٰه تعالى لا يخلق خلقاً ليتألموا للأبد دون غاية تطهيرية، وهذا هو قمة في فهم الحكمة الإلهية.

الدليل الذي يستندون إليه:
1. عموم الرحمة: قوله تعالى:{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } (الأعراف: 156). يقول ابن القيم: الكافر "شيء"، فإذا انتهى زمن الغضب (العذاب)، فلا بد أن

تدركه الرحمة، وإلا لكانت الرحمة لم تسع كل شيء.
2. سبق الرحمة للغضب: الحديث القدسي: "إن رحمتي سبقت غضبي". قالوا: الغضب له نهاية (وهو النار)، أما الرحمة فلا نهاية لها، فإذا انتهى الغضب، بقي مقتضى الرحمة.
3.انتهاء "الخبث": مدرسة ابن القيم ترى أن الكفر "خبث عارض" على الفطرة، والنار "مُطهر". فإذا احترق الخبث وبقيت الفطرة، فإن اللّٰه لا يترك هذه الفطرة في العذاب للأبد.

"يرى أصحاب القول بفناء النار (كابن القيم) أن مصير الكفار يؤول إلى الرحمة العامة، استناداً إلى أن اللّٰه أرحم بعباده من الأم بولدها، وأن مقتضى حكمته تقتضي انتهاء الشقاء بانتهاء سببه (وهو الخبث والكفر). ومع قول الجمهور بحرمة الجنة على الكافر، إلا أن هؤلاء الأئمة يرون أن قدرة اللّٰه ورحمته لا يحدها حد، وأن اللّٰه فعال لما يريد."

1. هل يخلف اللّٰه وعيده؟
القاعدة المشهورة عند العرب وفي عقيدة الكثير من العلماء (ومنهم من مال إليه ابن تيمية وابن القيم) هي:

"اللّٰه تعالى لا يخلف وعده (النعيم)، ولكنه قد يتجاوز عن وعيده (العذاب)."

الوعد: هو الإخبار بخير وإعطاء المكافأة (مثل الجنة للمؤمن). وهذا لا يخلفه اللّٰه أبداً كمالاً لصدقه وكرمه.
الدليل: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } (الرعد: 31).
الوعيد:هو الإخبار بشر أو عقوبة (مثل النار للعاصي).
وهنا يقول العلماء: إن اللّٰه قد "يخلف" وعيده، أي يعفو ويتجاوز، وهذا لا يُعد نقصاً بل يُعد كرماً وجوداً وإحساناً.

2. الفرق بين الوعد والوعيد
في اللغة والشرع، هناك فرق جوهري يوضح لماذا "خُلف الوعيد" يُعتبر مدحاً:
خُلف الوعد: يُسمى "كذباً" أو "بُخلاً"، واللّٰه منزه عن ذلك.
خُلف الوعيد: يُسمى "عفواً" و"كرماً" و"صفحاً"، واللّٰه هو أهل العفو والمغفرة.

قال الشاعر العربي قديماً في هذا المعنى:
وإني وإن أوعدتُه أو وعدتُه .. لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي.

3. هل الوعيد هو العذاب أو العقاب؟
نعم، الوعيد في الاصطلاح الشرعي هو: "الإخبار بوقوع العقاب على فعل محرم أو ترك واجب".
العقاب: هو النتيجة الفعلية (ما يحدث في الآخرة).
الوعيد: هو التهديد المسبق (ما ورد في القرآن والسنة من تخويف).

الدليل على أن الله يتجاوز عن الوعيد:
قوله تعالى: { وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ } (النساء: 48). فالله توعد العاصي بالنار، ولكنه أخبر أنه قد يغفر له (أي يخلف الوعيد بالعفو عنه) .

كلام ابن القيم عن فناء النار

العقوبة الدائمة إما أن تكون مصلحة للمعاقب، أو للمعاقب، أو لهما، أو لغيرهما، أو لا مصلحة فيها البتة، والأقسام كلها باطلة:
أما المعاقب؛ فإنه إنما تكون العقوبة مصلحة في حقه، إذا كان محتاجا إليها؛ لشفاء غيظه، وإطفاء نار غضبه التي يتأذى ببقائها. والله تعالى منزه عن ذلك كله، فلم

يبلغ العباد ضره فيضروه، ولا نفعه فينفعوه ...
وأما أنه لا مصلحة للمعاقب، ولا لغيره في ذلك؛ فظاهر؛ فتعين القسم الأخير، وهو أنه لا مصلحة فيها، وما كان كذلك؛ فهو عبث، يتعالى الله عنه ...
وهذا بخلاف ما إذا قيل: وضعت العقوبة لمصلحة، وتقدرت بقدرها، فإذا حصلت الحكمة، والغاية المطلوبة منها، وترتب المصلحة التي قصدت بها؛ عاد الأمر إلى الرحمة، والجود. اهـ.
وتناول بيان سعة رحمة الله، وأنها شاملة، وأنها تسبق غضبه، وتغلبه، ثم قال: وكل هذا ينفي أن يخلق خلقا لمجرد عذابه السرمدي، الذي لا انتهاء له، ولا انقضاء، لا لحكمة مطلوبة، إلا لمجرد التعذيب، والألم الزائد على الحد، فما قدر الله حق قدره من نسب إليه ذلك، بخلاف ما إذا خلقهم ليرحمهم، ويحسن إليهم، وينعم عليهم، فاكتسبوا ما أغضبه وأسخطه، فأصابهم من عذابه وعقوبته بحسب ذلك العارض الذي اكتسبوا، ثم اضمحل سبب العقوبة، وزال، وعاد مقتضى الرحمة؛ فهذا هو الذي يليق برحمة أرحم الراحمين، وحكمة أحكم الحاكمين ...
وهذا يدل على أنها خلقت لمصلحة من دخلها؛ لتذيب فضلاته، وأوساخه، وأدرانه، وتطهره من خبثه،

ونجاسته، كالكير الذي يخرج خبث الجواهر المنتفع بها، ولمصلحة من لم يدخلها؛ ليردعه ذكرها، والخبر عنها عن ظلمه، وغيه؛ فليست الداران عند الله سواء في الأسباب، والغايات، والحكم، والمصالح.
يوضح ذلك أن الله تعالى لا يعذب أحدا إلا لحكمة، ولا يضع عذابه إلا في المحل الذي يليق به ... وكيف يخلو أعظم العقوبات عن حكمة، ومصلحة، ورحمة، إن مصدرها عن تقدير أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.
والجنة طيبة، لا يدخلها إلا طيب؛ ولهذا يدخل النار من أهل التوحيد من فيه خبث، وشر؛ حتى يتطهر فيها، ويطيب ... ومعلوم أن النفوس الشريرة الظالمة المظلمة الأثيمة، لا تصلح لتلك الدار التي هي دار الطيبين، ولو ردت إلى الدنيا قبل العذاب؛ لعادت لما نهيت عنه، فلا تصلح لدار السلام التي سلمت من كل عيب، وآفة؛ فاقتضت الحكمة تعذيب هذه النفوس عذابا يطهر نفوسهم من ذلك الشر، والخبث، ويكون مصلحة لهم، ورحمة بهم ذلك العذاب، وهذا معقول في الحكمة، أما خلق النفوس لمجرد العذاب السرمدي لا لحكمة، ولا لمصلحة؛ فتأباه حكمة أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين. اهـ
وقال بعد ذلك: ولنرجع إلى المقصود، وهو أن الذين

قالوا: عذاب الكفار مصلحة لهم، ورحمة لهم، حاموا حول هذا المعنى، ولم يقتحموا لجته، وإلا فأي مصلحة لهم في عذاب لا ينقطع، وهو دائم بدوام الرب تعالى، فتأمل هذا الوجه حق التأمل، وأعطه حقه من النظر، واجمع بين ذلك وبين معاني أسمائه وصفاته، وما دل عليه كلام الله، وكلام رسوله، وما قاله الصحابة، ومن بعدهم، ولا تبادر إلى القول بلا علم، ولا إلى الإنكار، فإن أسفر لك صبح الصواب، وإلا فرد الحكم إلى ما رده الله إليه بقوله: {إن ربك فعال لما يريد}، وتمسك بقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وقد ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ووصف حالهم، ثم قال: "ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء". اهـ.

وفي هذا الكلام الأخير نوع توقف، أو بيان للإشكال الكبير في مسألة فناء النار!

هل النار تفنى مباشر او تخفف العذاب تدريجياً و بعدها تفنى ؟

ابن القيم لا يقول إن العذاب ينتهي "فجأة"، بل يطرح رؤية فلسفية وشرعية تقوم على "انتهاء مادة الشر"

بمرور أحقاب لا يعلم عدتها إلا اللّٰه.

1. من كتاب "حادي الأرواح" (الفصل المخصص لفناء النار):
في هذا الكتاب، يستعرض ابن القيم الأقوال في المسألة، ويميل إلى القول السابع وهو (أنها تفنى). يقول ما ملخصه:
"إن اللّٰه سبحانه أخبر عن الجنة أن عطاءها غير مجذوذ (أي غير مقطوع)، وأخبر عن أهل النار أنه يعذبهم ما شاء، ثم ذكر الأحقاب.. والحكمة الإلهية تقتضي أن العذاب لا يكون غاية في ذاته، بل هو وسيلة للتطهير، فإذا زالت مادة الخبث وصفا الجوهر، اقتضت الرحمة الإلهية شمولهم."

2. كيف شرح "التخفيف التدريجي"؟
ابن القيم يرى أن النار طبقات (دركات)، وأن رحمة اللّٰه تنزل تدريجياً:
المرحلة الأولى: خروج عصاة الموحدين بالشفاعة (وهذا مجمع عليه).
المرحلة الثانية:بقاء الكفار "أحقاباً" (والحقب قيل إنه 80 سنة، وكل يوم بألف سنة).

المرحلة الثالثة: يرى ابن القيم (نقلاً عن بعض الآثار) أن النار يخرج منها أناس لم يعملوا خيراً قط، ثم يأتي وقت يغلق فيه باب العذاب لأن "رحمته سبقت غضبه".

3. حجته في "انقطاع العذاب" (من كتاب شفاء العليل):
يقول ابن القيم كلاماً في غاية العمق المحاسبي والمنطقي:
تناهي الذنب: الذنب الذي فعله الكافر في الدنيا "محدود" بزمن (عاش 60 سنة مثلاً)، فمن مقتضى كمال العدل والرحمة أن لا يكون العقاب "غير محدود" أبد الآباد، بل ينتهي بانتهاء الحكمة منه.
صفات الله: يقول إن "الرحيم" من أسمائه، و"الجواد" من أسمائه، أما "المعذب" فليس من أسمائه الحسنى، بل هو فعل من أفعاله يزول بزوال سببه.

4. النص الشهير الذي يُستدل به عليه:
يقول في "شفاء العليل":
"والنار مآلها إلى الفناء، وهو قول طائفة من السلف والخلف.. ويستحيل أن يكون العذاب أبدياً لا نهاية له، لأن الرب تعالى أخبر أن رحمته وسعت كل شيء، والكافر شيء، فإذا لم تشمله الرحمة في وقت ما، لم

تكن قد وسعت كل شيء."

ابن القيم يرى أن النار (سجن للتطهير) وليست داراً للبقاء الأبدي مثل الجنة. يرى أن الكفار يُعذبون مدداً طويلة جداً (أحقاباً)، وفي كل حقبة يخف الضغط أو تتغير طبيعة العذاب، حتى يأتي وقت يأذن الله فيه بانطفاء هذه النار وشمول مَن فيها برحمته، مستدلاً بقوله تعالى: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}.

أن الله تعالى أخبر في ثلاث آيات عن النار بما يدل على عدم أبديتها:
أ ـ آية سورة النبأ: (لابثين فيها أحقابًا) (الآية: 23).
فتقييد لبثهم فيها بالأحقاب يدل على مدة مقدرة يحصرها العدد، لأن ما لا نهاية له لا يقال فيه: هو باق أحقابًا، وقد فهم ذلك من الآية الصحابة - وهم أفهم الأمة لمعاني القرآن - كما سنذكر بعد.
ب ـ آية سورة الأنعام: (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) (الآية: 128).
جـ ـ آية سورة هود: (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) (الآية: 107).. وقال بعدها في الجنة وأهلها: (خالدين فيها ما

دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) (الآية: 108). ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها، لكان حكم الاستثناء ين في الموضعين واحدًا. كيف؟ وفي الآيتين من السياق ما يفرق بين الاستثناء ين فإنه قال تعالى في أهل النار: (إن ربك فعال لما يريد) فعلمنا أنه تعالى يريد أن يفعل فعلاً لم يخبرنا به، وقال في أهل الجنة: (عطاء غير مجذوذ) فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبدًا - وسنذكر ما قاله الصحابة في الاستثناء

دل العقل والنقل والفطرة على أن الرب تعالى حكيم رحيم:

والحكمة والرحمة تأبيان بقاء هذه النفوس في العذاب أبد الآباد، وقد دلت النصوص والاعتبار على أن ما شرعه الله وقدره من العذاب والعقوبات في الدنيا، إنما هو لتهذيب النفوس وتصفيتها من الشر الذي فيها، ولحصول مصلحة الزجر والاتعاظ، وقطع النفوس عن المعاودة - وغير ذلك من الحكم - وفي القرآن والسنة ما يدلنا على أن جنس الآلام إنما هو لمصلحة الإنسان (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ) (التوبة: 120). الخ، (وليمحص

الله الذين آمنوا) (آل عمران: 141).إلخ
ورب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته ورحمته موجودة في الدارين، بل رحمته في الآخرة أعظم، فقد ورد في الصحيح: أن رحمته في الدنيا جزء من مائة جزء من رحمته في الآخرة، فإذا كان العذاب في هذه الدار رحمة بأهله ولطفا بهم ومصلحة لهم، فكيف في الدار التي تظهر فيها مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض.
وليس لله غرض في العذاب كما قال تعالى: (ما يفعل بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) (النساء: 147). كما أنه لا يفعله سدي، وإذن فلا بد من حكمة ومصلحة تعود على عباده، وهي إما مصلحة أحبائه وأوليائه بتمام نعيمهم وبهجتهم بما يفعله في أعدائه وأعدائهم، وإما مصلحة الأشقياء ومداواتهم، أو لهذا ولهذا. وعليه، فالتعذيب مقصود لغيره، قصد الوسائل لا قصد الغايات، والمقصود من الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها.
ونعيم أهل الجنة ليس متوقفًا في أصله ولا كماله على استمرار عذاب أهل النار ودوامه، ولو كان أهل الجنة أقسى خلق الله لرقوا لحال أعدائهم بعد طول العذاب.
ومصلحة الأشقياء ليست في الدوام واستمرار العذاب، وإن كان في أصل التعذيب مصلحة لهم.

أخبر الله تعالى أن رحمته وسعت كل شئ:
وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه كتب على نفسه الرحمة، فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب إلى غير غاية لم تسعهم رحمته، وهذا ظاهر جدًا، والثابت أن رحمته لا بد أن تنتهي حيث ينتهي العلم كما قالت الملائكة: (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمًا). (غافر: 7).
وقد تسمى الله بالغفور الرحيم ولم يتسم بالمعذب ولا بالمعاقب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم) (الحجر: 49، 50). وغيرها من الآيات، فإنه يتمدح بالعفو والمغفرة والرحمة والحلم... إلخ ويتسمى بها، ولم يتمدح بأنه المعاقب ولا الغضبان ولا المنتقم إلا في الحديث الذي فيه تعديد الأسماء الحسنى ولم يثبت.
يوضح هذا أن الله لم يخلق الإنسان عبثًا ولم يخلقه ليعذبه:
وإنما خلقه ليرحمه ولكن اكتسب موجب العذاب بعد خلقه له، فتعذيبه ليس هو الغاية، وإنما تعذيبه لحكمة ورحمة، والحكمة والرحمة تأبيان أن يتصل عذابه سرمدًا إلى غير نهاية، أما الرحمة فظاهر، وأما الحكمة فلأنه إنما عذب على أمر طرأ على الفطرة وغيرها، ولم

يخلق عليه من أصل الخلقة، لأن الله خلق عباده حنفاء، ولم يخلق له؛ لأنه لم يخلق للإشراك ولا للعذاب. بل خلق للعبادة والرحمة ولكن طرأ عليه موجب العذاب فاستحق العذاب، وذلك الموجب - وهو الكفر - لا دوام له فكيف يكون موجبه دائمًا؟

الآيات التي دلت على خلود الكفار وتأبيدهم في النار، وقد قال: إن ذكر الخلود والتأبيد لا يقتضي عدم النهاية، والخلود هو المكث الطويل كقولهم: قيد مخلد والتأبيد في كل شئ بحسبه، فقد يكون لمدة الحياة، ولمدة الدنيا. وقد ورد النص بالخلود على بعض الكبائر من الموحدين وقيد في بعضها بالتأبيد، كما في قاتل المؤمن عمدًا: (فجزاؤه جهنم خالدًا فيها) (النساء: 93). وكما في قاتل نفسه: "فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا".

الآيات التي دلت على عدم خروجهم منها: (وما هم بخارجين من النار) (البقرة 167). (وما هم منها بمخرجين) (الحجر: 48)، (لا يقضى عليهم فيموتوا) (فاطر: 36).إلى آخر تلك الآيات قال: فطائفة قالت: إن إطلاقها مقيد بآيات التقييد بالاستثناء بالمشيئة، فيكون

من باب تخصيص العموم وكأن هذا قول من قال من السلف في آية هود: أتت على كل وعيد في القرآن.
والذي صححه ابن القيم أن هذه الآيات على عمومها وإطلاقها، فهم باقون فيها لا يخرجون منها ما دامت باقية، ولكن ليس فيها ما يدل على أن نفس النار دائمة بدوام الله لا انتهاء لها، وفرق بين أن يكون عذاب أهلها دائمًا بدوامها، وبين أن تكون هي أبدية لا انقطاع لها، فلا تستحيل ولا تضمحل.
الإجماع، قال ابن القيم: وإنما يظن الإجماع في المسألة من لم يعرف النزاع، وقد عرف النزاع فيها قديمًا وحديثًا، كيف وقد نقل عن الصحابة والتابعين التصريح بخلاف ما يدعون؟
ثالثًا: بعد هذا كله مال ابن القيم إلى التفويض في المسألة إلى مشيئة الله فلا جزم بفناء النار، كما لا جزم بدوامها. قال في شفاء العليل: وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين على؛ فإنه ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ووصف ذلك أحسن صفة ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء، وعلى مذهب ابن عباس حيث يقول: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا. ذكره في تفسير قوله تعالى: (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء

اللّٰه)..
وعلى مذهب أبي سعيد الخدري حيث يقول: انتهى القرآن كله إلى هذه الآية: (إن ربك فعال لما يريد)،
وعلى مذهب قتادة حيث يقول: (إلا ما شاء ربك): اللّٰه أعلم اثنياه: علام وقعت؟، وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول: أخبرنا اللّٰه بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: (عطاء غير مجذوذ) ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.
والقول بأن النار وعذابها دائمان بدوام اللّٰه خبر عن اللّٰه بما يفعله، فإن لم يكن مطابقًا لخبره عن نفسه بذلك كان قولاً عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك، واللّٰه أعلم.

و مصير الكافر في أرض اللّٰه:

حياة الكافر بعد تطهيره من كفره (دخول الإسلام):
يقول ابن القيم أن الكافر إذا أسلم وتطهر من شركه، يذوق حلاوة تسمى "جنة الدنيا".
• المعنى: يرى أن حياته السابقة كانت "ضيقاً وضنكاً" حتى لو كان غنياً، وبعد الإسلام يرى أرض اللّٰه بنور جديد.
• الدليل: قوله تعالى: أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ سورة الأنعام (آية 122):

كما كتبت أنت: ﴿...كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾.

. ابن القيم يقول أن هذه الآية تشرح حال من "تطهر" من كفر الجهل بنور التوحيد، فتتغير رؤيته لكل ذرة في أرض الله.

2. متى يرى الكافر ربه وهو في أرض الله؟

من المهم التوضيح أن "رؤية الله بالعين" في الدنيا (أرض الله) ممتنعة على الجميع (مؤمن وكافر). لكن ابن القيم يتحدث عن نوعين من الرؤية للكافر:

• رؤية البصيرة (رؤية الآيات): يرى الكافر "الله" من خلال أفعاله في الكون (أرض الله) عندما تضيق به السبل، فيعرف أن هناك إلهاً واحداً.

"إن رؤية الكافر لعظمة الله في الدنيا هي (حجة عليه)، بينما رؤيته لآثار رحمته بعد فناء النار هي (تفضل من الله). وبذلك تكتمل دائرة العدالة: عذاب بـ (العدل) ثم فناء بـ (الفضل)."

• الدليل: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
• الدِّينَ
• سورة العنكبوت (آية 65):

﴿...فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

. هنا يرى الكافر عظمة الله في نجاته، فيتطهر قلبه من الشرك لحظتها.

3. كيف تكون حياة الكافر بعد رؤية (معرفة) الله؟

إذا اهتدى الكافر ورأى حق الله في أرضه، تتحول حياته من "الوحشة" إلى "الأنس".

- يقول ابن القيم: "في القلب شعث (تشتت) لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به"، وهذا ينطبق على الكافر الذي يبصر الحق؛ فتنقلب أرض الله في عينه من سجن إلى بستان للعبادة.

إليك 3 نقاط قد يطرحها المنتقدون :

1. "التأبيد بكلمة (أبداً)"

قد يقول لك البعض: هناك آيات ذكرت الخلود مع كلمة (أبداً) مثل قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا { إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } (النساء: 169).

كما ذكر ابن القيم في بحثك، كلمة "أبداً" في اللغة العربية قد تأتي بمعنى "المدة الطويلة جداً" أو "ما دامت الدار قائمة". والدليل أن الله قال عن المنافقين والظلمة أَبَدًا، ثم استثنى بالمشيئة في آيات أخرى.

فالمشيئة (إلا ما شاء ربك) حاكمة على "الأبد"، لأن أبد المخلوق ينتهي بمشيئة الخالق، أما أبد الخالق فلا نهاية له.

2. "الفرق بين الموحد والكافر"

قد يقول أحدهم: "خروج الناس من النار ورد في الأحاديث لـ (عصاة الموحدين) فقط، فكيف نعممه على الكفار؟"

هنا تظهر عبقرية ابن تيمية؛ هو يقول إن خروج الموحدين يكون "بالشفاعة"، أما فناء النار للكفار فيكون "بالمشيئة والرحمة العامة". أي أن الموحد يخرج بفضل "إيمانه"، أما الكافر فينتهي عذابه بـ "انتهاء النار نفسها" وفنائها بفضل "رحمة الله التي سبقت غضبه". النار هي التي تفنى، فإذا فني السجن، خرج المسجون.

3. "العدالة والمساواة"

قد يسأل سائل: "أليس من الظلم أن يتساوى المؤمن الذي تعب وصلى، مع الكافر الذي طغى، بأن يرحم الله الاثنين في النهاية؟"

العدل الإلهي محفوظ؛ فالمؤمن في الجنة في درجات لا يبلغها غيره، والكافر عُذب "أحقاباً" (ملايين السنين) كجزاء عادل. المساواة في "الوجود في رحمة الله" لا تعني المساواة في "الدرجة والنعيم". تماماً مثلما يخرج

السجين بعد 20 سنة؛ هو لم يتساوِ مع من عاش حراً طوال حياته، لكنه في النهاية نال حريته.

4. "الإجماع"

"الأمة أجمعت على أبدية النار، ومن خالف الإجماع فقد شذ".

"الإجماع في هذه المسألة ليس قطعياً، فقد نُقل الخلاف عن كبار الصحابة (عمر، ابن مسعود، ابن عباس، وأبو هريرة)، ولا إجماع مع وجود خلاف معتبر بين الصحابة."

"إنما يظن الإجماع من لم يعرف النزاع، كما قال ابن القيم."

والله أعلملة ليس قطعياً، فقد نُقل الخلاف عن كبار الصحابة (عمر، ابن مسعود، ابن عباس، وأبو هريرة)، ولا إجماع مع وجود خلاف معتبر بين الصحابة."

"إنما يظن الإجماع من لم يعرف النزاع، كما قال ابن القيم."

والله أعلم